نوستالجيا مواطن التذكار بين شعر جرير ومجنون ليلى

Spots of Emotional Reminiscence Nostalgia between *Jarir* and *Majnoon Layla's* Poetry

براء خالد هلال

باحث دكتوراه في النقد الأدبي

الجامعة الإسلامية العالمية بإسلام آباد

Abstract

The Umayyad era is characterized by the poetry of chaste romance, a type of love distinguished by purity and loyalty to the beloved, along with the profound connection to places and locations associated with it. Umayyad poets such as Jarir and Majnoon Layla went to great lengths, reminiscent of pre-Islamic poets, in expressing the difficulty of the emotional state and the circumstances in which their beloveds are remembered. This expression reflects the extent of their attachment and the intertwining of their souls with their loved ones. However, this poetic expression sometimes reached nostalgic extremes, infused with a longing that borders on melancholy. Jarir and Majnoon Layla are among other Umayyad Bedouin poets, who passionately immersed themselves in their love, akin to the harshness of the Arabian desert. Their memories and emotions, situated in specific locations, become integral parts of the realm of love confronting the harshness of circumstances. Nevertheless, their poetry is distinguished by its refined language, poetic imagery, and the ability to revive and evoke moments and places that witnessed instances of passion and love. This Historical critical research will be in light of a psychological framework.

Keywords: Nostalgia, Chaste Love Poetry, Umayyad Age's Poetry, Jarir, Majnoon Layla. النوستالجيا، الحنين، جرير ، مجنون ليلى

مقدمة:

الحمد لله مقلب القلوب والأبصـار ، والصـلاة على النبي المختار، وعلى آله وصـحبه الطيبين الأطهار، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم ترجع الناس للواحد القهار، أما بعد:

فإن العصر الأموي عصر الغزل العذري، هذا العشق الذي يتسم بالعفة والوفاء للمحبوبة الواحدة، وكل ما يرتبط بها من الأماكن والمواضع، قبل أن ينصرف شعراء المولدين إلى الغزل بالجواري والقيان. وقد بالغ الشـاعر الأموي على طريقة الشـعراء الجاهليين في تعبيره عن وعورة المواطن والظروف الذي تذكر فيها محبوبته، تعبيراً عن مدى ارتباطها به ومعايشتها لروحه، لكنه وصل في مبالغته إلى مراحل نوستالوجية فيها كثير من الحنين المرَضي، الذي نجده في مواضع كثيرة من شعر جرير والمجنون وكثيّر عزة وذو الرمة، وغيرهم

من شعراء البداوة الأموية. أفرط الشاعر الأموي في التعبير عن حبه إفراط قسوة صحراء جزيرة العرب على معيشته، مما جعل ذكريات الشاعر ومشاعره في مواقع معينة تشكل جزءًا من مساحة الحب الذي يواجه قسوة الظروف. لكن قصائد ذلك العصر بالرغم من ذلك تميزت باللغة الرفيعة والصور الشاعرية وأظهرت القدرة على إحياء واستحضار المواقف والأماكن التي شهدت لحظات من العاطفة والحب. في عالم الشعر البدوي، يتجلى هذا الحنين بشكل لافت وتترسخ المشاعر العميقة في مضمار الذاكرة الثقافية لتلك القبائل التي كانت تتخذ من التضاريس البسيطة التي لايؤبه لها معالمَ في الطريق، تأنس بها وتركن إليها وتكثر من ذكرها في أشعارها وأيامها. وقد كان الشعر في العصر الأموي لايزال فطرياً يتميز بالبساطة والارتباط العميق مع الطبيعة والتراث، ولم يدخل بعدُ قصورَ الملوك ولا وقفت دونه الحجاب والدواوين لتعلمه مراسم الملك والإمارة. لذا استمرت مظاهر النسيب والوقوف على الأطلال في شعر صدر الإسلام و أخذت مكاناً بارزاً في روح ذلك العصر وأدبه.

البيئة الصحراوية وأسلوب الحياة البسيطة في الخيام والترحال المستمر جزء لا يتجزأ من تجربة شعراء هذه المرحلة، وجرير والمجنون بعض منهم طبعاً، حيث يتركون ورائهم في ديارهم الراسمة جزءاً من أرواحهم، يحنون إليها كلما هب نسيم الصبا، فصوروا تلك اللحظات التي حنت فيها أرواحهم للمحبوب تصويراً واقعياً مليئة بالألم والمعاناة الممزوجة بالمتعة المرتبطة بالذاكرة الجميلة. هذا البحث تاريخي نقدي يسير في ضوء المنهج النفسي، وقبل أن نشرع به لا بد أن نوضح المفهوم المعاصر للنوستالجيا وظلال هذا المفهوم الذي يميزه عن الحنين العادي.

مفهوم النوستالجيا:

النوستالجيا مفهوم "يوناني الأصل مركب من كلمتين "nostos" وتعني عودة و "algos"وتعني معاناة"[1]، فهو إذن معاناة يسببها الحنين المستحيل للعودة إلى الماضي، وما يكابده المرء من آلام وأوجاع جراء ذلك الحنين للمسكن والموطن، ووساوسه المستمرة بألا يتمكن من العودة إليه أبد الدهر. هذه الوساوس تدخل المصاب بهذا الشعور في حالة مرضية أو شكل من أشكال الاكتئاب. أخذ استخدام كلمة نوستالجيا يتوسع خلال القرن الثامن عشر في أوروبا، وأصبح يعبر عن التعلق المرضي بأي مكان، ثم بأي أزمنة بعيدة أو أشخاص.[2] مفهوم النوستالجيا بات بحثاً بالغ الأهمية في الحقبة الرومنسية، ونحت له اللغويون العرب مصطلح (الحُنان) بضم الحاء، وعرفوه بأنه "حب شديد للعصور الماضية بشخصياتها وأحداثها".[3] هذا الحب يتقد بفعل أي مؤثرات بسيطة تشير إلى ذلك الماضي ولا يربطنا إلا بما عايشناه من المشاعر الجميلة فيه، متجاهلين الطبيعة الحقيقية لتلك الحقبة التي تداخلها السراء والضراء كأي حياة أخرى. الألم المصاحب لذلك الشعور هو رغبة العقل الباطن في العودة واسترجاع تلك الذكريات مرة أخرى[4].

بين النوستالجيا والحنين، أسباب اختيار المصطلح:

مفهوم جداً أن يتذكر المرء محبوبته في السياقات المألوفة، كأن يتذكرها بزقزقة عصفور أو جيد غزال، أو نفح عبير الزهور، كما قال ابن زيدون {من البسيط}[5]:

إِنِّي ذَكَرْتُكِ بِالزَّهْرَاءِ مُشْتَاقًا وَالأُفْقُ طَلْقٌ وَوَجْهُ الأَرْضِ قَدْ رَاقَا

هذا البيتُ من أجمل ما قيل في الحنين في سياقه المنطقي؛ لأنه قرن الحبيبةَ بِمُشَاهِها، وبالمكانِ الذي يليقُ أن تكونَ حاضرةً فيه، وبحصةِ الزمان التي تُعَدُّ من نفائس العمر. لكننا هنا نتحدث عن الربط بين ذكرى المحبوب وبين لحظات عصيبة غير مألوفة، بالغ الشعراء في تصويرها عبر العصور للتدليل على عِظم الألم المصاحب لتلك الذاكرة، بدءاً من قول عنترة {من الكامل}:

ولقد ذكرتكِ والرماحُ نواهلٌ مني وبيضِ الهندِ تقطر من دمي

فوددتُ تقبيلَ الرماحِ لأنَّها لمعت كبارقِ ثغرِكِ المتبسِّمِ

وانتهاءً بقول الشاعر الفكاهي المعاصر حفني ناصف{من الكامل}[6]:

ولقد ذكرتكِ والحمارُ معانديِ فوقَ الحديدِ وأُقبلَ البُّورُ[7]

والصورة رغم عدم جديتها، وطرافتها، لكن الشاعر جرى فيها مجرى هذه السنّة التي تربط تذكر المحبوبة بلحظة عصيبة يوشك فيها المرء على الهلاك، حيث يرفض حماره التحرك من فوق السكة بينما القطار يقترب. فهذا هو السبب لاعتماد مصطلح النوستالجيا، التي تركز على الشوق للقديم الفائت، بهدف تفريقه عن الحنين في سياقه الطبيعي المألوف.

النوستالوجيا المتصالحة في شعر جرير:

اتفق النقاد أن أشعر شعراء صدر الإسلام ثلاثة،[8] هم جرير والفرزدق والأخطل، واختلفوا في التفاضل بينهم، لكن لم يختلف أحد من النقاد على رقة شعر جرير، وتفوقه على صاحبيه في الغزل والحنين[9].

ولد شاعر النقائض الأشهر في قرية أُثَيْفِيَة[10] في اليمامة، قرب مدينة الرياض في عالم اليوم، ومات فيها عن أكثرمن تسعين عاماً، لكنه خلال هذه العقود التسعة جاب جزيرة العرب والشام وأرض الرافدين[11]، وعاش في البصرة ردحاً من الزمان يمدح أميرها بشر بن مروان، ورحل إلى واسط عشرين عاماً يمدح واليها الحجاج بن يوسف. وأرسله الحجاج إلى عبدالملك بن مروان خليفة المسلمين ليمدحه، وهو أثناء ذلك كله، وإن كان ينحدر لأب فقير من كليب، فخذ لا يؤبه له من يربوع، لكنه لم ينس أنه من يربوع، وأن يربوع من تميم، جمرة من جمرات العرب، والجمرة القبيلة العظيمة التي تستغني عن الأحلاف[12]، فهو وإن عاش في ديار بني يربوع في البصرة قريباً من ثلاثين عاماً، والبصرة آنذاك درة مدائن الدنيا وملتقى البحر بالرافدين، لكن لم يزل يحنُّ في صوره الشعرية وأبياته إلى مسقط رأسه في منزل أبيه راعي الضأن في

اليمامة، حتى لو كان أبوه ذلك الرجل القميء الذي لا يزال جرير يتشاتم معه ثم يعايشه مضطراً، لكنه قارع بأبيه هذا ثمانين شاعراً فغلبهم به[13].

في مربد البصرة بدأت حكاية جرير بن عطية الخطفي، مع ابن عم له من مجاشع التميمية، التي تتفوق على كليب بل على يربوع كلها، نسباً ومنزلة في تميم. هذه الحرب الهجائية التي ستستمر أربعين عاماً، غذّاها والي البصرة، بشرُ بن مروان، شقيق عبدالملك، الذي ما كان لا يعجبه شيء أكثر من تناطح هذين الفحلين، جرير والفرزدق، على المربد[14]. لكن الأيام لم تمهل بشراً أكثر من عامين بعد ولايته للبصرة فتتخطّفه يد الأقدار، ليقف جرير على قبره يبكيه بدموعه الحرى، مشيراً إلى مواطن الذكرى فقال {من الكامل}:[15]

يا قَلبُ هَل لَكَ في العَزاءِ فَإِنَّهُ ... قَد عيلَ صَبرُكَ وَالكَريمُ صَبورُ
وَلَقَد ذَكَرتُكِ بِاليَمامَةِ ذَكرَةً ... إِنَّ المُحِبَّ لِمَن يُحِبُّ ذَكورُ
وَالعيسُ مُنعَلَةُ السَريحِ مِنَ الوَجى[16] ... وَكَأَنَّهُنَّ مِنَ الهَواجِرِ عورُ
يا بِشرُ حُقَّ لِبِشرِكَ التَبشيرُ ... هَلّا غَضِبتَ لَنا وَأَنتَ أَميرُ

في البيت الثاني يُدِلّ جرير على مرثيه بذكره له في اليمامة، وما خصّص اليمامة بالذكر إلا لأنها أعز الديار إلى قلب الشاعر، فما حزن جرير على موت بشر إلا كحزنه على هجر اليمامة، وهكذا ترتبط نوستالجيا الحنين بمفاهيم الحزن عبر خسارة سببت ألماً كبيرًا في السابق، أو حنيناً إلى زمن مضى كانت تسوده طمأنينة غابت في حاضر الأيام. هذا الحنين يتزايد مع مرور الأيام وطول البعد، ويتجدد كلما مر ذكر الموطن في الخاطر، مشحوناً بكثير من المشاعر التي تثير رغبة العودة إلى ذلك الماضي، حتى ولو لم يكن الماضي مثالياً، حيث يصف جرير حر هجير نجد، الذي يجعل أخفاف الجمال تتلوى من الرمضاء، ولا تكاد تستطيع تفتح عينها لوهج شعاع الشمس.. جو قاتل، يجعل من الحنين إلى مثله حالة نفسية لايبررها إلا الألفة والتعود.

النوستالجيا في الأبيات المذكورة آنفاً نوستالجيا متصالحة تحاول إعادة بناء الطريقة التي تم تذكر الماضي بها حتى تبعث حالة إيجابية في المشاعر، وقد ظهرت هذه المشاعر في البيت الأخير في قول جرير، الذي يعاتب فيه الأمير الراحل بقوله (هلّا غضبتَ لنا وأنتَ أميرُ) ورغم أنه عتاب ميت لا يجدي نفعاً، لكنها طريقة لجلب شيء من الطمأنينة إلى الروح والتصالح مع الماضي الذي لم يكن كما يحب جرير.

جرير الذي ألف الترحال، ارتبطت دياره في ذاكرته براحلة السفر، فما يكاد يذكر هذه إلا ذكر تلك، مثل هذه الأبيات التي قال فيها جرير {من الكامل}:[17]

حيّوا الديارَ وأهلَها بسلامِ ... ربعًا تقادَمَ أو صريعَ خيامِ
أطربتِ أن هتف الحَمامُ وربما ... أبكاكِ بعد هواكِ شجوُ حَمامِ

فـاصـــطـادَ قلبَـكِ من وراء حجـابـه مـن لا يُـرى لســـنـين غـير لُـمـامِ
أمـا الوِصـــالُ فقـد تقـادمَ عهـدُه إلا الخـيـالُ يـعـود كـل مـنـامِ
ولـقـد ذكـرتـكِ والمـطـيّ خـواضـعٌ مـثـل الجـفـونِ بـبُرقـتي إرمـامِ

جرير أحد أهم شعراء صدر الإسلام الذين عادوا بنظام القصيدة إلى تقاليد الجاهلية، بعد أن كاد شعر صـدر الإسـلام يقتصـر على الدعوة والجهاد، فكان لجرير الذي وُلدَ في خلافة عثمان بن عفان، وأدرك مقتل علي صـبياً أوشـك يبلغ الحلم، الدور الأكبر مع أقرانه من شـعراء الحجاز في إعادة القصـيدة إلى الهيكل الذي لا يتسم بغرض مستقل، على خلاف معاصره عمر بن أبي ربيعة الذي قصر قصائده على الغزال الصـــريح. بينما يماشـــي جرير عمر بن أبي ربيعة على ســـنة امرئ القيس في تعدد المحبوبات في القصيدة الواحدة، رغم أن جريراً لا يفحش الوصف كالمذكورين آنفاً، وذلك لأن عاطفته غير صادقة، إنما يبدأ بالنسيب لأنه سنة من سنن العرب، فلو نظرنا في قصيدته الشهيرة (بان الخليط) لوجدناه يخاطب تارة (أم عمرو) وتارة (أم عثمان) وفي قصـــيدة أخرى يخاطب زوجته الحقيقية (أم حزرة) وتارة أخرى يخاطب أمامة وهكذا. يقول جرير {من البسيط}[18]:

مـا كُـنـتُ أَوَّلَ مُشـــتـاقٍ أَخـا طَـرَبٍ هـاجَـت لَـهُ غَـدَواتُ الـبَـينِ أَحـزانا
يا أُمَّ عَـمـرٍو جَـزاكِ اللَهُ مَـغـفِـرَةً رُدّي عَـلَـيَّ فُـؤادي كَـالَّـذي كـانا
يا أُمَّ عُـثـمـانَ إِنَّ الحُـبَّ عَـن عَـرضٍ يُصـــبي الحَليمَ وَيُبكي العَينَ أَحيانا

يجري جرير في هذا الأمر إذن على طريقة امرئ القيس الذي يذكر (أم الحويرث) و(أم الرباب) و (عنيزة) و(فاطمة) في قصيدة واحدة . كذلك نجد تنقلاً في الأغراض ضمن القصيدة الواحدة، كما نجد تعدداً في المشاعر والأحاسيس من قمة الوجد إلى أقصى السعادة إلى ذروة الهجاء، وكانت القصيدة تمزج أساليب الغزل الجاهلي بغزل عذرة العفيف، فهو يخاطب المرأة ويتغزل بها، ثم يتنقل من ذلك إلي التعبير عن دواخل نفسه، فيصور لنا لوعته وألمه وحرمانه، دون أن يحقق صوره واحدة واحدة، بل يكاد يمر ببعضها مرور الكرام ثم يحيد عنها إلى غرض آخر، فقد كان لحياة جرير البدوية أكبر الأثر في شـــعره، وطبيعة نفســه، فألفاظه زجلة المبنى ســهلة المعنى، ترقُّ عند الوجد، وتحتدُّ في الهجاء، إلا أن ذلك كله لم يذهب بأثر القرآن الكريم في شعره، إذ لطَّفَ فيه من طابع البداوة، وبرزت ألفاظه في أبياته كقوله في صدر المطلع (حيُّوا الديارَ وأهلَها بسلام) ولايخفى مافي هذا المطلع من تأثّرٍ بأسلوب القرآن، أما موطن تذكّرِ المحبوب في هذا النص – وهو محور حديثنا– فإن لم يكن في المنام كحال المحبين، فحين تلتقي الخيل وتخضعها القنا والسيوف، كما تخضَعُ عيون فرسانها وتنكسر. ويخص جرير بالذكر هنا موقعة جرت بين تميم وطيء يبدو

أن الغلبة كانت فيها لتميم، فبرقة إرمام، موقع في ديار بني نبهان من طيء، وقد جاء في شعر زيد الخيل الطائي، يذكر دياره قائلاً {من الطويل}[19]:

سقى الله ما بين القفيل فطابةٍ فبرقةِ إرمامٍ فما حولَ منشدِ

هذا التذكر المرتبط بالحرب والأسر والإخضاع، حنين مصاب بالنوستالجيا المرَضية، على أنه ليس حالة عابرة في شعر فحل تميم، بل حالة نشوة لا يفتأ يعيدها كلما دقت طبول التذكار في مخيلته دقاً عنيفاً لتنتج هذه الصورة، حيث يقول جرير في قصيدة شهيرة أخرى له مقتبساً نفس الصورة {من الكامل}:[20]

لمن الدّيارُ كأنَّها لم تُحلَلِ بين الكُناسِ وبين طلحِ الأعزلِ
ولقد ذكرتكِ والمطيُّ خواضعٌ وكأنهنَّ قطا فلاةٍ مُجهلِ
يا أمَّ ناجيةَ السلامُ عليكمُ قبل الرَّواح وقبل لومِ العُذَّلِ
وإذا غدوتَ فباكرتكَ تحيةٌ سبقتْ سروحَ الشاحجاتِ الحُجَّلِ

هذا الحنين في شعر جرير يكاد من رقته يشعرك أنه ممزوج بالمتعة المتولدة من ذكر المحبوب وآثاره، والشوق لمعايشته مراراً وتكراراً.. ومن هذا الباب ارتبطت الرومانسية المعاصرة ارتباطاً وثيقاً بالنوستالجيا بشكل مباشر سواء في الأحداث أو الشخصيات، إن كان يمكننا أن نقول أن جريراً في مطالعه هو أحد أهم شعراء الرومانسية الأمويين، فهو ليس شاعراً عذرياً بالمعنى الاصطلاحي وليس شاعراً عُمَرياً، لكنه شاعرٌ هجّاء أتقن رومانسية المطالع. الأبيات السالفة تنبئنا أن جريراً منتشٍ بهذا التذكار، وإن كان نجم عن عاطفة سلبية، ظهرت بشكل صريح في البيت الثاني، الذي ضمّن فيه صدره نفس الصدر في الأبيات المذكورة آنفاً، ولكن سرعان ما خرج من تلك الحالة إلى الشعور الجميل الذي يرسل التحية والأشواق.

وقال جرير يصف موطناً من مواطن الذكرى {من الطويل}:[21]

وماذا عليهمْ أن يعوجُوا بدمنةٍ عفتْ بينَ عوصاءِ الأُمَيْلحِ والنَّقبِ
ذكرتكِ والعيسُ العتاقُ كأنَّها بريقة أحجارٍ قياس من القُضبِ

رغم اعتماد شعر الأطلال والتذكار على إقحام أسماء الديار والمواضع "كعوصاء الأميلح والنقب"، التي لا ترتبط ارتباطاً مباشراً إلا بذاكرة الشاعر نفسه، وقد لا تحمل عظيم أثر في نفس المتلقي، إلا أن أسلوب جرير يتميز بسهولة الألفاظ والتراكيب التي تندرج فيها أسماء تلك الأماكن، وهو ما جعل من شعر جرير أشيع بين العامة من شعر منافسيه الفرزدق والأخطل، اللذين كانت ألفاظهما أميل إلى الوعورة وحوشي اللفظ، أضف إلى ذلك ما أحسنه جرير من القوافي والأوزان التي تستقيم مع ترانيم المغنيات وموسيقى الشعر بما تتضمنه من التراكيب السهلة متجانسة الألفاظ التي لا تعقيد فيها ولا التواء، رغم أنه لم يكن يبالغ في

استخدام الصور البيانية في قصائده، انسياقاً وراء عادة البدوي في نسج الشعر، مما يجعل نظمه قريب التناول جميل التعبير. وإن هذه الصفات في شعره تجعلنا نستبعد فكرة وجود تعقيد نفسي يمر به جرير يقوده إلى النوستالجيا المَرَضية، لأن اعتماد جرير على عين طبعه، وانسياقه السلس وراء سليقته الشعرية جعلت لشعره موسيقى تطرب لها النفس، ويهتز لها حس العربي الذي يعجب بجمال الصيغة والشكل، ويؤخذ بأناقة التعبير وحلاوة الجرس أكثر مما يؤخذ بعمق الفكرة والغوص في المعاني، لتجعلنا في النهاية نؤكد قول القائل: "لقد كان يُنظر إلى النوستالجيا على أنها اضطراب عقلي، لكن اليوم، تغيرت الفكرة حول هذا المفهوم، ولقد أصبح يُنظر إليه بإيجابية أكثر، فهو يُساعد الشخص على تذكر الذكريات الجميلة التي حدثت له في الماضي، ويَشعر بالحنين إليها كثيرًا، لهذا السبب ارتبطت به الأدبيات الرومانسية"[22].

اضطراب النوستالجيا في شعر المجنون:

مجنون ليلى، تلك الشخصية الشعرية التي استطاعت أن تخترق حدود جزيرة العرب لتتربع على عرش أساطير الحب المشرقية في العالم، وبات ديوانه درة الشعر العذري العربي، وجعل من ليلى رمزاً لكل محبوبة في بلاد العرب. قضى المجنون حياته المفترضة يبكي ليلاه ويحن للقياها وذكراها، فصار هذا البكاء رمز الوفاء في الشعر الفارسي والهندي والتركي والأردي، إلى يومنا هذا. لكننا في ضوء ما اطلعنا عليه من استقرار المواطن في شعر جرير الذي كان يحن إلى مسقط رأسه في اليمامة في جل شعره، ويربط مواطن التذكار في شعره بهذا الموطن، وفي ضوء ما رأيناه من ارتباط جل الشعراء العذريين بموضع ما من جزيرة العرب يطوفون حول ذكره، كارتباط جميل بثينة بوادي القرى، وارتباط الصِّمة القشيري بنجد وجبل البشر، وارتباط مالك بن الريب بالغضا وبئر السُّمَينة والمواضع التي أكثر من ذكرها في شعره رغم ترحاله واستشهاده في مرو من بلاد خراسان.. يجوز لنا أن نضع كثيراً من التساؤلات على شعر قيس بن الملوح، الذي لم يكد يستقر على موضع يحنُّ إليه، رغم أن الروايات المفترضة عن وجود هذه الشخصية تقول أنه نجدي أيضاً.. فليلاه تارة في العراق وتارة في الشام وتارة حضرمية وتارة حجازية وفي القصيدة نفسها، ولو نظرنا في قصيدته الأشهر (مؤنسة المجنون) لوجدنا هذا الاضطراب، من مثل قوله {من الطويل}[23]:

تَـذَكَّـرتُ لَـيـلـى وَالسِـنـيـنَ الخَـوالِـيـا ... وَأَيّامَ لا نَخشـى عَـلـى الـلَـهـوِ ناهِـيـا
وَيَـومٍ كَـظِـلِّ الـرُمـحِ قَصَّـرتُ ظِـلَّـهُ ... بِـلَـيـلـى فَـلَـهّـانـي وَمـا كُـنـتُ لاهِـيـا
بِثَمـدينَ لاحَـت نارُ لَيلى وَصُـحبَتي ... بِـذاتِ الغَضـى تُزجي المَطِيَّ النَواجِيا
فَمـا طَلَعَ النَجمُ الَّـذي يُهتَـدى بِـهِ ... وَلا الصُـبـحُ إِلّا هَـيَّـجـا ذِكـرَهـا لِـيـا
وَلا سِـرتُ ميلاً مِن دِمَشـقَ وَلا بَـدا ... سُـهَـيـلٌ لِأَهـلِ الشـامِ إِلّا بَـدا لِيـا
وَلا سُمِّـيَـت عِـنـدي لَهـا مِـن سَمِـيَّـةٍ ... مِـنَ الـنـاسِ إِلّا بَـلَّ دَمـعـي رِدائِـيـا
وَلا هَـبَّـتِ الـريـحُ الجَنـوبُ لِأَرضِـهـا ... مِـنَ الـلَـيـلِ إِلّا بِـتُّ لِـلـريـحِ حـانِـيـا

في مطلع هذه القصيدة الطويلة، يبدأ الشاعر في تذكر ليلى، في سياق الموقع الجغرافي الذي يتحدث عنه الرواة للموطن الذي عاش فيه المجنون، حيث يذكر مواضع في نجد، ك (ثمدين) و(ذات الغضى)، وهي مواضع وردت مراراً في قصائد شعراء نجد كمطلع مالك بن الريب في مرثيته، لكن الأمر لا يسير على هذه السوية في بقية الأبيات، فيبدأ المجنون يشرّق ويغرّب في شعره وذاكرته، فطوراً يذكرها خارجاً من (دمشق)، بل ويزيد فيجعل نجم سهيل اليماني شآمياً أيضاً. ذِكرُ دمشق الشام هنا ليس يتيماً في شعر المجنون، فهو يقول في بيت آخر على سبيل المثال {من الطويل}[24]:

دعا باسمِ ليلى أسخنَ اللهُ عينَهُ وليلى بأرضِ الشَّامِ في بلدٍ قفرِ

ولكن فكرة البيت السابق ليست للمجنون وحده، فلعله أخذ هذا المعنى من شعر يزيد بن معاوية، فكانت ضرورة استدعاء دمشق في هذا الموضع أوجب، إذ يقول يزيد في شوقه لزوجته {من الطويل}[25]:

إذا سِرتُ ميلًا أَو تغنَّت حمامةٌ دعتْني دواعي الشَّوقِ من أمِّ خَالِد

وَكَانَ مُحَمَّد بن سِيرِين يَقُول هُوَ أشوق بَيت قالته الْعَرَب[26]، فمن الطبيعي أن يسير يزيد ميلاً من دمشق التي كانت تحت حكمه، أما أن يُدلّ المجنون بهذا الشـــوق، فهو إن كان حقيقياً فقد تأثر لا محالة بقول يزيد. الأبيات لم تقتصر على ربط التذكار بالمواضع الجغرافية، فقد أتي في النص بصور لطيفة لهذا الحنين الذي لا ينطفأ ليلا ولا نهاراً ، بل لا يسير على سوية مستقرة، إنما يهيج هيجاناً، وقد عبر عن ذلك في البيت الرابع أجمل تعبير، ثم إنه لا يتمالك نفســه كلما رأى من تســمَّت بليلى، كما قال في البيت قبل الأخير في النص أعلاه، والحقيقة أن المبالغة في هذا النص شـعرية مقبولة ولا يصـح أن نسـتدل بها على نفي حقيقة شـخصـية المجنون، فهناك هناك بعض الاختلافات في تأثير النوسـتالجيا المرضـية من شـخص لآخر؛ مما يجعل رد فعل المرء في مواطن التذكار متناقضـة مع شـخص آخر مر بنفس الظروف، فأحدهما يتجلد والآخر ينهار، كما يدعي بن الملوح في الأبيات السابقة. إنما يعود السؤال ليطرح نفسه كلما تابعنا في قراءة القصـيدة، حول هذا الاضـطراب في مواطن التذكار الذي لايفترض أن تمتد هكذا على مسـاحة الوطن الناطق بالعربية، ففي هذين البيتين من القصيدة نفسها يجعل من تيماء موطناً لليلى، فيقول[27]:

وَخَـبَّرتُمـاني أَنَّ تَـيـمـاءَ مَـنـزِلٌ لِلَيلى إذا ما الصَـيـفُ أَلقى المَراسِـيـا
فَهَذي شُـهورُ الصَـيفِ عَنّا قَدِ انقَضَـت فَـمـا لِـلـنَـوى تَـرمـي بِـلَـيـلـى المَـرامِـيـا
فَـلَـو أَنَّ واشٍ بِالـيَـمـامَـةِ دارُهُ وَداري بِأَعـلـى حَضـرَمَـوتَ اِهـتَـدى لِـيـا

ليلى في هذه الأبيات أميرة من بنات الملوك، تتخذ لها مصيفاً ومشتى، وكأنها ليست بدوية من ربيعة بن عامر بن صعصعة. فهي نجدية في الشتاء، فإذا حل المصيف ارتحلت إلى تيماء[28]، وتيماء شمال الجزيرة على بعد مرحلتين من تبوك، ليست بأحسن جوا من نجد، وإن كان الحال كذلك فهل كان يرتحل قيس

إلى تيماء فعلاً في مطاردة ليلى، وإن كان يرتحل فعلاً من يمامة نجدٍ إلى تيماء، فلماذا جعل داره في حضرموت افتراضاً، ولم يجعلها في الشام أو العراق، وهي بلاد أقرب إلى تيماء من أعلى حضرموت، أم أن الأبيات حشو مخترع نثرت فيه مواطن التذكار كيفما اتفق؟!

لا شك أن الحنين بتفاصيله شيء جميل ويمد المرء بسعادة وراحة، "ولكن تكمن الخطورة عند الرغبة في إدمان استرجاع اللحظات السابقة، وفي المبالغة باللجوء إلى الحيل الدفاعية النفسية كالنكوص وممارسة سلوكيات لا تتناسب مع العمر والمقام وإدمان أحلام اليقظة، والإنكار لحقائق الواقع"[29]، فهذا هو الخطر الوحيد وراء النوستالجيا، والذي يكمن عندما يتوقف المرء عندها ولا يرغب في تخطيها أو تركها وإعاقة حياته الواقعية والمستقبلية، أو الاستمرار في الضرب بالأرض يميناً ويساراً، تماماً كما فعل المجنون حيث لم يترك من جزيرة العرب موضعاً إلا عبَره في هذه الأبيات القليلة، فبعد ميلاً من دمشق فصار هواه يمانياً كما يقول[30]:

أَلا أَيُّها الرَكبُ اليَمانونَ عَرَّجوا ... عَلَينا فَقَد أَمسى هَواناً يَمانِيا
أُسائِلُكُم هَل سالَ نَعمانُ بَعدَنا ... وَحُبَّ إِلَينا بَطنُ نَعمانَ وادِيا
أَلا يا حَمامَي بَطنِ نَعمانَ هِجتُما ... عَلَيَّ الهَوى لَمّا تَغَنَّيتُما لِيا
وَأَبكَيتُماني وَسطَ صَحبي وَلَم أَكُن ... أُبالي دُموعَ العَينِ لَو كُنتُ خالِيا

أي لمحة بسيطة قد تهيج مشاعر الحنين في نفس الشاعر وتزج به جو من الشجى والحزن، كصورة عصفور ورائحة وردة، بل حتى رائحة الخبز، وكل ما لديه القدرة على تحفير روابط الدماغ السابقة، لكن الوصول إلى مرحلة النوستالجيا يستلزمه معاناة أيضاً كفقد حبيب وفراق إلف، وهو حال المجنون في هذه الأبيات، فمصطلح النوستالجيا ابتكره طالب طب يدعى يوهانس هوفر، حين لاحظ أن بعض عمال الأجرة السويسريين المغتربين عن بلادهم يعانون أعراضاً مرضية مشتركة كالأرق وتسارع ضربات القلب وعسر الهضم، وعزا ذلك إلى ما سماه الحنين إلى أوطانهم المترافق مع هذه الآلام،[31] وهي حالة سماها بالنوستالجيا، وهو تماماً ما نلحظه في أبيات المجنون الذي يشجيه مرأى مياه (نعمان)[32] تسيل، ونعمان وادٍ في مكة، وهكذا اكتمل العقد النظيم في مؤنسة المجنون إذ كانت الحجاز غائبة عن القصيدة إلى هذا البيت، فنرى المجنون تهيّج ذكرياته مرأى حمامة كان أسعده هديلها في الزمان الماضي، فأصبحت مصدر إلهام لما يستقبله من الزمان يحرك عليه الآلام والمواجع ويحفزه على إبداع هذا الشعر الذي يقطر أسى وعذوبة، وهي سمة مألوفة في العلاقات العاطفية الحزينة ذات النهايات البائسة. ولعل قول المجنون في هذه الأبيات متأثرٌ بقول أبي صخر الهذلي في رائيته الجميلة {من الطويل}:[33]

وَإِنِّي لَتَعروني لِذِكراكِ رِعدَةٌ ... كَمَا انتفضَ العصفورُ بلّلَه الْقطرُ

وهذه صورة بديعة في مواطن التذكار، تبعث القشعريرة في القلوب، أكثر من تذكر قيس لليلى في جوار الحرم، إذ لم تحضر مكة متمثلة بوادي نعمان، في شعر المجنون في هذا الموضع فحسب، بل وردت في شعره باسمها الصريح المباشر، وهو إذ يخبّر ليلى أنه تذكرها في مكة ففي هذا التذكر بعد آخر غير العاطفي المجرد، فيقول {من الوافر}[34]:

ذكرتُكِ والحَجِيجُ لـه ضَجِيج ... بمكةَ والقلوبُ لها وَجِيبُ
أتوبُ إليكَ يا رحمنُ ممّا ... عملتُ فقد تظاهرتِ الذنوبُ
فأمّا من هوى ليلى وتركي ... زيارَتها فإنّي لا أتوبُ

مكمن المبالغة في هذه الأبيات أن الإنسان في مواضع التعبّد لا يقصد إلا ربّه، ولكنّ قيساً استوحى من هذا الموقف الذي تجتمع فيه الناس خاشعة خاضعة، أمراً غير ذلك.. استوحى ساعة اللقاء المرتقب بليلى، هوى وروحاً، واختيار مكة لهذه التذكار يضفي على اللحظة قدسية وهيبة، ويجعل مناسك الحب كمناسك الحج وطقوسه، أوليست مكة هي التي التقى فيها آدم وحواء على عرفات حسبما تقول الأسطورة. ثم نرى قيساً بعدما جعل ليلى النجدية حجازية تارة ويمانية تارة وشآمية تارة أخرى، لم يضنّ عليها بموطن في العراق، فقال[35]:

ألا يا حماماتِ العراقِ أعنّني ... على شجني وابكينَ مثلَ بُكائيا
يقولون ليلى في العراقِ مريضةٌ ... فيا ليتني كنتُ الطبيبَ المداويا

وهكذا نرى أنه ليس لليلى في شعر المجنون موطن ثابت، فهي موزعة على أقطار الأرض، تهيّج على قيس هواه أنى هبت رياحُها، فيلجأ إلى تذكار كل جميل يجمعهما، ناسياً أو متناسياً الآلام والمواجع والحدود والسدود التي قاساها، متمسكاً بالحنين الذي يغذي التفاؤل وانتظار المستقبل. وهذه الحمامات التي لا تفتأ تهيئ مواجع المجنون كلما صدفها، إذ يقول في موضع آخر {من الطويل}[36]:

أيا حرجاتِ الحيّ حيث تحمّلوا ... بذي سَلَمٍ لا جادكنَّ ربيعُ
وخيماتِكِ اللاتي بمنعرجِ اللوى ... بليْنَ بِلى لم تُبلهنَّ ربوعُ
إلى الله أشكو نيةً شقَّت العصا ... هي اليوم شتّى وهي أمسِ جميعُ
وما كادَ قلبي بعد أيامِ جاوزتْ ... إليَّ بأجراعِ الثديِّ يريعُ
فإنَّ انهمالَ العينِ بالدمعِ كلّما ... ذكرتكِ وحدي خالياً لسريعُ
فلو لم يُهِجْني الظاعنون لهاجني ... حمائمُ وُرقٌ في الدِّيار وقوعُ

شعر المجنون لم يخلُ من الحنين الطبيعي إذن، إذ يتذكر ليلى في هديل كل حمامة وطرف كل شادن، لكن يخرج المجنون في التشبيهات والصور المألوفة لمواطن التذكار إلى صور موجعة، انطلاقاً من حسه النوستالجي

العاشق للألم والمتلذذ بالمعاناة، فحتى الغزال الذي يذكره بليلى ليس غزالاً سارحاً في السهول النضرة، يقول المجنون {من الطويل}[37]:

وَذَكَّـــرَنِي مَـــن لا أَبـــوحُ بِـــذِكـــرِهِ مُحـاجِـرُ خِشـــفٍ في حَـبـائِـلِ قـانِـصِ
فَـقُـلـتُ وَدَمـعُ الـعَـينِ يَجـري بِحُـرقَـةٍ وَلَحـظي إِلى عَـينَـيـهِ لَحـظَـةُ شـــاخِـصِ
أَلا أَيُّـهَـذا الـقـانِـصُ الخِشـــفَ خـلّـهِ وَإِن كُـنـتَ تَأباهُ فَـخُـذ بِـقَـلائِصـــي
خَـفِ اللَهَ لا تَـقـتُـلـهُ إِنَّ شَـــبـيـهَـهُ حَـيـاتي وَقَـد أَرعَـدتَ مِـنّي فَـرائِصـــي

قرينة التشبيه واضحة بين الغزالة وليلى، والتشبيه مألوف في تراث العرب، لكن المجنون جعل الغزال منكسراً جريحاً في شباك الصياد، في محاولة لإحداث مفارقة بين رقة الغزال وقسوة الأسر، وما كان شراء قيس للغزال في هذا النص وإعتاقه إلا توضيحاً لمدى ارتباط هذا الحنين الآسر بحياته وتحكمه بسلوكه. نلاحظ أن المجنون في هذه الأبيات كأنه يرد على الشاعر الذي نقل عنه الجاحظ في البيان والتبيين موقفاً معاكساً في موطن التذكار حيث يقول{من الوافر}[38]:

ذكرتـكِ ذكرةً فـاصـــطـدتُ ظبيـاً وكـنـتُ إذا ذكـرتُـك لا أخـيـبُ

إذ فإن هذه الأبيات تعكس الروابط المحكمة بين العواطف الوجدانية العميقة وبين قرارات الحياة العملية، وتوضح الطبيعة النفسية لكل شاعر على اختلافها، حيث يرى علماء النفس أن معظم العقلانيين هم الأكثر اطمئناناً، وينطلقون من الحاضر وحده لأنه الزمن الوحيد الذي نملك مفاتيح سعادته، والسعادة مرتبطة بطبيعة الفرد وتكوينه ومزاجه وشخصيته ومقدار رضاه عن نفسه.

خاتمة:

في ختام هذا البحث، نجد أن جريراً ومجنون ليلى، اتجها إلى المبالغة في تصوير الحنين في أشعارهما بصور غير مألوفة، متأثرين بالتراث الشعري في هذا السياق، حتى بات توصيفهما ضرباً من النوستالجيا المَرَضيّة، ولكن بأشكال وتجليات متنوعة، حيث ظهرت في شعر جرير رغم قسوة صورها، بالشكل المتصالح الذي يعيد صياغة الماضي بحيث يكون جميلاً يطيب الحنين إليه، بعد حذف ما به من منغصات، منطلقاً من تجارب الحياة البسيطة والقيم البدوية. يعكس جرير بشاعريته تفاعلًا إيجابيًا مع الماضي، مستخدمًا لغة جميلة وصـــادقة فنياً لنقل تلك المشـــاعر، كما ركز ارتباطه بأرض واحدة هي أرض اليمامة، لكنه عدد المحبوبات، مما يشي بأن نسيبه كان اتباعاً لسنة العرب في نسج الشعر.

أما شعر مجنون ليلى فيظهر اضطراباً كبيراً في النوستالجيا، إذ يظهر الشاعرالحنين إلى مواضع مختلفة، لم ينقل الرواة أن المجنون عاش فيها، وامتدت من شمال جزيرة العرب وبلاد الشام والعراق إلى جنوبها في بلاد حضرموت واليمن، مروراً بنجد والحجاز كما يتناول الشاعر في قصائده تجارب العشق والفراق بطريقة

تظهر توترًا واضـــطرابًا نفســـيًا، عبر ترديد الشـــاعر لذكريات مؤلمة، تعكس تأثيرها العميق على حالته النفسـية. وذلك في مجمله يقوي رأي الذي يشـكون بوجود المجنون من أسـاسـه، ويقولون أنها شـخصـية مجمعة من عدة شخصيات، وأن جل شعره منحول.

الهوامش

(1) معجم مصطلحات الطب النفسي، لطفي الشربيني، سلسلة المعاجم الطبية المتخصصة (بالعربية والإنجليزية)، مراجعة: عادل صادق، مدينة الكويت: مركز تعريب العلوم الصحية، مؤسسة الكويت للتقدم العلمي،(2003) ص 123.

(2) "النوستالجيا: المصطلح الطبي الذي انتهى إلى حالة شاعرية" مقال إسلام سعدي سالم، صحيفة منشور، بتاريخ 2018/8/14. https://manshoor.com/society/nostalgia-illness-and-meaning/

(3) معجم مصطلحات الطب النفسي، ص 123.

(4) انظر: The Uses of Nostalgia Studies in Pastoral Poetry, Laurence Lerner(1972) Chatto and Windus.

(5) جمهرة أشعار العرب، أبو زيد القرشي، ص376.

(6) وهذا كثير في الفكاهة، من مثل قولهم:

ولقد ذكرتكِ والحريقُ بمنزلي وصراخُ من حولي يهزُّ المنزلا
فوقفت أشكو نارَ حبّكِ باكياً وأراكِ من شوقي إليكِ تخيلا

وقول آخر:

ولقد ذكرتكِ حين كنت فريسةً بالماءِ بين نواجذِ التمساح
والناسُ ملءَ الضفتينِ سمعتُهم يتفجعونَ بزفرةٍ ونواحِ
وانا على وشك الممات تهزُّني من طيبِ ذكركِ نشوةُ الأفراحِ

(7) البور: هو القطار البخاري، واللفظ مأخوذ من كلمة Vapor بمعنى بخار.

(8) انظر: الديباج لأبي عبيدة معمر بن المثنى، ص1، وانظر: جمهرة أشعار العرب، لأبي زيد القرشي، ص 100، وانظر الشعر والشعراء لابن قتيبة، 138/1.

(9) انظر المراجع السابقة.

(10) أُثَيْفِيَةُ، كحُدَيْبِيَةٍ: قرية لبني كليب بن يربوع بالوشم من أرض اليمامة وأكثرها لولد جرير بن الخطفى الشاعر، معجم البلدان، ياقوت الحموي، دار صادر، بيروت ط2 (1995م)، 93/1.

(11) انظر: مقدمة كرم البستاني لديوان جرير، دار بيروت للطباعة والنشر (1986)، ص5.

(12) انظر: مقاييس اللغة، لابن فارس، تحقيق عبدالسلام هارون، دار الفكر (1979) 478/1.

([13]) انظر: أول الشعر، عارف حجاوي، دار المشرق، القاهرة (2016)، ص 291.

([14]) هذا بارز في شعر جرير، وفي مقدمات القصائد والشروح التي كتبها محمد بن حبيب على هامش ديوان جرير، انظر مثلاً: ديوان جرير بشرح محمد بن حبيب،103/1.

[15] ديوان جرير، دار بيروت للطباعة والنشر (1986) ص233.

[16] الوجى: رقة الحوافر والأخفاف لكثرة المشي، و وَجِيَ الفرسُ بالكسر، وهو أن يجد وجعاً في حافره، انظر: الصحاح، باب وجى، ص 5656.

[17] ديوان جرير، ص426.

[18] ديوان جرير، ص 491-492.

[19] معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، عبد الله بن عبد العزيز الأندلسي، دار الكتب، بيروت، ط3 (1403هـ)، 141/1.

[20] ديوان جرير بشرح محمد بن حبيب، تحقيق: نعمان طه، دار المعارف ، القاهرة- مصر ، ط3 (1440 هـ)، 939/2

[21] ديوان جرير، 631/2.

[22] النوستالجيا".. لماذا يلجأ الإنسان للعيش في الماضي؟، مدونة د. سماح عليان، مدونات الجزيرة، منشور بتاريخ 2018/8/6.

[23] ديوان مجنون ليلى، ص121-123.

[24] ديوان مجنون ليلى، ص 33.

[25] مرآة الزمان في تواريخ الأعيان، سبط ابن الجوزي، تحقيق محمد بركات ورفاقه، دار الرسالة العالمية، دمشق (2013م) 303/8.

[26]المرجع السابق.

[27] ديوان مجنون ليلى، ص 123.

[28] تيماء: بليد في أطراف الشام، بين الشام ووادي القرى، على طريق حاجّ الشام ودمشق، والأبلق الفرد حصن السموأل بن عادياء اليهودي مشرف عليها، فلذلك كان يقال لها تيماء اليهودي. انظر: معجم البلدان، ياقوت الحموي، دار صادر، بيروت ط2 (1995م) 67/2.

[29] انظر: Why do we need nostalgia?", medicalnewstoday, Retrieved 20/4/2022

[30] ديوان مجنون ليلى، ص 125.

([31]) النوستالجيا: المصطلح الطبي الذي تحول إلى حالة شاعرية.

[32] وادي نعمان: هو أحد أكبر أودية الحجاز، يقع في الجهة الشرقية لمكة المكرمة وهو ضمن منطقتها الإدارية، يسكنها حوالي ستة آلاف نسمة.

(33) يتيمة الدهر، لأبي منصور الثعالبي، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، القاهرة (1375هـ) 326/4.

(34) نفحة الريحانة ورشحة طلاء الحانة، محمد أمين المحبي، النسخة الالكترونية (1431هـ)، 76/2

(35) ديوان مجنون ليلى، ص 38.

(36) الآمالي، لأبي علي القالي، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط2 (1926م) 136/1.

(37) ديوان مجنون ليلى، ص 44.

(38) البيان والتبيين، الجاحظ، دار ومكتبة الهلال، بيروت (1423 هـ)، 241/2.

المراجع:

1- الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني، تحقيق: إحسان عباس ورفاقه، دار صادر، بيروت، الطبعة الثالثة (2008م).

2- الأمالي، أبو علي القالي، دار الكتب المصرية ط2 (1344هـ).

3- أول الشعر، عارف حجاوي، دار المشرق (2015).

4- توظيف النوستالجيا فى بناء الرسالة الإعلانية، لمياء عبد الكريم قاسم وإلهام عبدالرحمن إبراهيم وإيمان جمال محمد، مجلة جامعة حلوان، مصر، العدد العاشر.

5- جمهرة أشعار العرب، لأبي زيد القرشي، تحقيق علي محمد البجادي، دار نهضة مصر للنشر والطباعة والتوزيع.

6- الديباج لأبي عبيدة معمر بن المثنى.

7- ديوان جرير بشرح محمد بن حبيب، تحقيق: نعمان طه، دار المعارف ، القاهرة- مصر ، ط3 (1440 هـ).

8- الشعر والشعراء لابن قتيبة،

9- مرآة الزمان في تواريخ الأعيان، سبط ابن الجوزي، تحقيق محمد بركات ورفاقه، دار الرسالة العالمية، دمشق (2013م)

10- معجم البلدان، ياقوت الحموي، دار صادر، بيروت ط2 (1995م).

11- معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، عبد الله بن عبد العزيز الأندلسي دار الكتب، بيروت، ط3 (1403هـ).

12- معجم مصطلحات الطب النفسي، لطفي الشربيني، سلسلة المعاجم الطبية المتخصصة (بالعربية والإنجليزية)، مراجعة: عادل صادق، مدينة الكويت: مركز تعريب العلوم الصحية، مؤسسة الكويت للتقدم العلمي،(2003).

13- نفحة الريحانة ورشحة طلاء الحانة، محمد أمين المحبي، النسخة الالكترونية (1431هـ).

14- The Uses of Nostalgia Studies in Pastoral Poetry, Laurence Lerner(1972) Chatto and Windus

15- Nostalgia: A Psychological Resource, Clay Routledge , A Psychology Press Book, 3rd ed. New York City(2016)